مجلة تسليم
Journal Homepage: https://tasleem.alameedcenter.iq
ISSN: 2413-9173 (Print) ISSN 2521-3954 (Online)

فِي التَّسْلِيمِ القُرْآنِيِّ:

التَّأْوِيْلُ التَّسَانُدِيُّ لِآيَاتِ القُرْآنِ الكَرِيْمِ
تَأْطِيْرٌ نَظَرِيٌّ وَنَمُوْذَجٌ تَطْبِيْقِيٌّ

عمر محضار بن الحسين [1]

١ جامعة سيدي مُحَمَّد بن عبد الله/ كُلِّيَّة الآداب والعلوم الإنسانيَّة سايس/ شعبة الدراسات العربيَّة، المغرب؛
omar.mahdar@gmail.com

دكتوراه في اللغة العربية/مدرس

تاريخ التسلّم	تاريخ القبول	تاريخ النشر
٢٠٢٥/٣/٢	٢٠٢٥/٥/١٢	٢٠٢٥/٦/٣٠

المجلـد (٢٢) العـدد (٣٤)
محرم ١٤٤٧هـ. حزيران ٢٠٢٥ م

DOI:
10.55568/t.v22i34.1-29

CC BY NC

مُلَخَّصُ البحْث:

يهدف هذا البحث إلى دراسة مفهوم "التأويل التساندي" في تفسير آيات القرآن الكريم، مع التركيز على نموذجٍ تطبيقيٍّ من تفسير البيضاويِّ "أنوار التنزيل وأسرار التأويل" من خلال تفسيره لسورة الإنسان. ويعتمد البحث على مبدأ التساند بين العناصر النصِّيَّة والسياقيَّة في عمليَّة التأويل، إذ يتمُّ الجمع بين الأدلَّة الداخليَّة للنَّصِّ (كاللُّغة والنحو والصرف والبلاغة) والأدلَّة الخارجيَّة (كأسباب النزول، النصوص الموازية، الشواهد الشعريَّة والحديثيَّة) لفهم المعنى بشكل أعمق.

كما يخلص البحث إلى أنَّ التأويل التساندي يتحقَّق من خلال التفاعل بين العناصر النَّصِّيَّة والسياقيَّة في تفسير القرآن. يعتمد البيضاويُّ في تفسيره على تساند المداخل اللُّغويَّة (معجميَّة، صرفيَّة، نحويَّة، بلاغيَّة) مع الموازيات الخارجيَّة (أسباب النزول، الشواهد الشعريَّة والحديثيَّة) لبناء المعنى بشكل متكامل. هذا النهج يبرز أهمِّيَّة التفاعل بين العلوم المختلفة في عمليَّة التأويل، ممَّا يُسهم في فهم أعمق لمعاني القرآن الكريم.

الكلمات المفتاحيَّة: التأويل، التساند، الخطاب، التفسير، البيضاويّ.

The Synergistic Interpretation of the Verses of the Holy Quran: A Theoretical Framework and an Applied Model

Omar Mahdhar bin Al-Hussein [1]

1 / Sidi Mohamed Ben Abdellah University / Faculty of Arts and Human Sciences – Sais / Department of Arabic Studies, Morocco;

omar.mahdar@gmail.com

PhD. in Arabic Language/ Lecturer

Received:	Accepted:	Published:
2/3/2025	12/5/2025	30/6/2025

DOI: 10.55568/t.v22i34.1-29 Volume (**22**) Issue (**34**) Muharram 1447 AH June 2025 AD

CC BY NC

Abstract:

This research aims to study the concept of " Interdependence Interpretation ", (Al-Ta'wil al-Tasanudi) to explain the ayats in Glorious Quran. It particularly focuses on an applied model from Al-Baydawi's exegesis, Anwar al-Tanzil wa-Asrar al-Ta'wil (The Lights of Revelation and the Secrets of Interpretation), through his interpretation of Surat Al-Insan (Mankind). The study is based on the principle of interdependence between textual and contextual elements in the interpretive process. This involves combining internal textual evidence (such as language, grammar, morphology, and rhetoric) with external evidence (such as reasons for revelation, parallel texts, and poetic and hadith testimonies) to achieve a deeper understanding of the meaning.

The research concludes that Interdependence Interpretation is achieved with the interaction between textual and contextual elements in interpreting Glorious Quran. Al-Baydawi, in his in-

terpretation, relies on the interdependence of linguistic approaches (lexical, morphological, grammatical, rhetorical) with external parallels (reasons for revelation, poetic, and hadith testimonies) to construct a comprehensive meaning. This approach highlights the importance of the interaction between various sciences in the interpretive process, contributing to a profound understanding of the meanings of the Glorious Qur'an.

Keywords: Interpretation, Interdependence, Discourse, Exegesis, Al-Baydawi

المُقَدِّمَةُ

لقد عمل الباحث مُحَمَّد بازي، في كتاب "التأويليَّة العربيَّة"، على بسط طرح تأويليٍّ نظريٍّ وتطبيقيٍّ، صاغ من خلاله مبادئ بلاغةٍ تأويليَّةٍ قائمة على إستراتيجيَّة التساند، منطلقًا من سؤال قاعديٍّ: "ما الذي يُحقِّق لدى قارئ معيَّن بلاغة تأويليَّة كما تحقَّقت لصاحب النَّصِّ بلاغة إنتاجيَّة؟"[١]. ومدافعًا عن تساند الدوائر النصِّيَّة (من لغة، ونحو، وصرف، وبلاغة، وقراءات) وموازياتها السياقيَّة (من نصوص قرآنيَّة، وحديثيَّة، وخبريَّة، وشعريَّة، وإسرائيليَّات، وأمثال، وأقوال..) في عمليَّة الفهم وبناء المعنى، فاللُّغة مثلًا تسند التخريج النحويَّ أو البلاغيَّ، والاشتقاق يسند اللغة والنحو.. إنَّه تساند بين الدوائر النصِّيَّة فيما بينها من جهة، وبين الدوائر النصِّيَّة مع الدوائر السياقيَّة من جهة أخرى. فما التساند إذن؟ وكيف يَتَحَقَّق على مستوى الآية الواحدة أو السورة ككل؟

تلكم أسئلة سنحاول تقديم إجابات عنها محاولين تقديم نموذج تطبيقيٍّ نبرز من خلاله تساند الآليَّات وتطالبها في عمليَّة التأويل.

أوَّلًا: التأويل التسانديُّ: تأطير نظريٌّ

١- التساند عند مُحَمَّد بازي: من المفهوم إلى الإستراتيجيَّة

أ- التساند مفهومًا:

ينهض التأويل التسانديُّ على جملة من المفاهيم والمصطلحات، في مقدِّمتها مفهوم **التساند** بلحاظهما مفتاحًا أساسًا، فمصطلح التساند في المعاجم العربيَّة مشتقٌّ من الجذر اللُّغويِّ "سند" فقد جاء في "أساس البلاغة" للزمخشريِّ ما نصُّه: "تساند إلى الحائط وسوند المريض. وقال ساندوني ونزلنا في سند الجبل والوادي وهو مرتفع من الأرض في قبله، والجمع أسناد. وناقة سناد: طويلة القوائم. وساند الشاعر سنادًا. ولا أفعله آخر المسند وهو الدهر"[٢].

---

١ بازي, محمد التأويلية العربية: نحو نموذج تساندي في فهم النصوص والخطابات, ط١ (منشورات الاختلاف, ٢٠١٠), ١٧.

٢ الزمخشري, أساس البلاغة, تحقيق. محمد باسل عيون السود بيروت-لبنان: دار الكتب العلمية, (١٩٩٨), ٤٧٧.

أوَّل ما نلحظ من خلال هذا التعريف، أنَّ مصطلح **"التساند"** قد عبَّر عن معنى المعاضدة التي يرتفع بها الشيء عَمَّا هو عليه بشيء آخر يعضِّده ويسنده. كما دلَّ الجذر "سند" على جملة من المعاني كالتعاضد والطول، والصعود والمرتفع، والقوَّة، والدهر.

أمَّا اصطلاحًا فيعرف الدكتور مُحَمَّد بازي التساند بقوله: "نقصد به –أي التساند- تبادل العون والمساندة في عمليَّة بلوغ المعنى بين العناصر المعتمدة في الفهم، فاللُّغة مثلًا تسند التخريج النحويَّ أو البلاغيَّ، والاشتقاق يسند اللُّغة والنحو، والنصوص الموازية تسند الدلالة، والمثل يدعم المعنى... إنَّه تساند يتأسَّس لحظة الاشتغال بالتأويل بين الدوائر النَّصِّيَّة والدوائر السياقيَّة، وهو تساند تتحقَّق فيه الملاءمة والانسجام بين العناصر والمستويات"[٣].

والملحوظ أنَّ هذا التعريف ينطلق من تصوُّر وجود بنيات داخليَّة للنص وأخرى خارج نصِّيَّة (لغة، ونحو، وصرف، وبلاغة، وشواهد، وموازيات خبريَّة وسياقيَّة وغيرها...)، تتحكَّم هذه البنيات باجتماعها وتفاعلها في بناء المعنى وبلوغ الدلالة. فالبنى الداخليَّة تتشكَّل من العناصر التركيبيَّة والدلاليَّة واللُّغويَّة، أمَّا المؤشِّرات الخارجيَّة فتتمَثَّل في العناصر السياقيَّة الموازية لعمليَّة إنتاج النصِّ كظروف كتابته، وانفتاح على الشواهد بمختلف أنواعه وهلمَّ جَرًّا وسحبًا ممَّا يسند العناصر الداخليَّة ويعضِّدها. إذاً، فـ "هكذا تتساند الأدلَّة البنائيَّة والدلاليَّة النصِّيَّة؛ كلمات وتراكيب نحويَّة وبلاغيَّة وعلامات مع الأدلَّة الخارجيَّة، المتمثِّلة في المعرفة النفسيَّة والاجتماعيَّة بالكاتب، وحياته، ومعتقداته، وقيمه، واهتماماته، ومذكَّراته، ورسائله، وحواراته"[٤].

يتَّضَحُ ممَّا سبق أنَّ مُحَمَّد بازي ينحو في قراءة العمل وتأويله منحى يؤلِّف بين ما تفرَّق من رؤى وتصوُّرات ومناهج، لكنَّه يعطي الأولويَّة للأدلَّة البنائيَّة أي العناصر الداخليَّة للنَّصِّ، ولا يستهين بدور المعطيات الخارجيَّة والتفاصيل المرتبطة بحياة

٣ بازي, التأويلية العربية: نحو نموذج تساندي في فهم النصوص والخطابات, ٣٤٨.
٤ بازي, ٥٤.

المؤلِّف في المساعدة على بلوغ المعنى الخفيِّ الذي يفترض أنَّه المعنى الذي عناه المؤلِّف أوَّل الأمر.

إجمالًا، فالتساند عند مُحَمَّد بازي هو عمليَّة توليفيَّة بين العناصر البنائيَّة أي العناصر الداخليَّة للنَّصِّ، وبين المعطيات الخارجيَّة المساعدة، وباجتماعهما وتفاعلهما يسهمان في بناء المعنى وبلوغ الدلالة.

ولا بُدَّ أن نشير إلى أنَّ التساند هو: التعاون والتعاضد والتطالب والتفاعل، لأنَّ كلَّ هذه المفردات اللُّغويَّة تحمل معنى التعاون، والتساند في مقترح الدكتور مُحَمَّد بازي يمتح من هذه المعاني: التقابل والتعاون والتعاضد بين العناصر المعتمَدة في بناء المعنى.

ب- **التأويل التسانديُّ إستراتيجيَّة:**

نقصد بالتأويل التسانديِّ، هنا بوصفه إستراتيجيَّة، التأويل الذي يعمل بآليَّة التساند بين العناصر البانية للنصِّ أو الخطاب وما يحيط بهما، أي "إنَّ المؤوَّل يستحضر في عمليَّة بناء المعاني كلَّ العلوم المفيدة في الفهم من بلاغة ولغة ونحو وصرف، وتاريخ وأعراف وتقاليد وشواهد مختلفة داعمة لتخريج دلاليّ، إضافة إلى ملكاته التأويليَّة وخبرته بالفهم والتفهيم، ومن ثمَّة فهي تتساند وتتعاون في الخطاب"[٥].

ينحو التأويل التساندي منحى تكامل المعارف بين كلِّ العلوم المفيدة والموصلة إلى المعنى، علاوة على قدرات المؤوَّل وخبرته، إنَّه "إجراء تأويليٌّ ناظمٌ لمعطيات النصِّ ومعطيات سياقه بطريقة مقبولة ومنسجمة، تستند إلى الانتقالات الممكنة التي تسمح بها بلاغة المؤوَّل بين النَّصِّ وامتداداته، ويهدف التأويل التساندي إلى تحويل التصوُّرات المقترحة إلى آليَّات قابلة للتجريب، وإنجاز قراءات تأويليَّة مبنيَّة على قاعدة نظريَّة تنقل المقاربات من أحاديَّة المنظور التحليليِّ وانحباسه في منحى ضيِّق؛

٥ بازي, محمد نظرية التأويل التقابلي: مقدمات لمعرفة بديلة بالنصّ والخطاب, ط١ الرباط: دار الأمان, (٢٠١٣), ٤٠٥.

لإعـادة الاعتبـار لتسـاند الأدوات والمعطيـات وتعاونهـا في بلـوغ الفهـم وبنـاء المعـاني، والإفهـام"[٦] [٧].

ت_الأسس المعرفيَّة للتأويل التسانديِّ:

يقـوم المشروع التأويـليُّ التسـانديُّ والتقابـليُّ عنـد مُحَمَّـد بـازي عـلى أسسٍ معرفيَّـة متعَـدِّدَة، فهـو كـما يرى الباحـث مصطفـى رجـوان "إمبراطوريَّـة واسـعة أساسـها الـتراث العـربي بمختلـف مجالاتـه المعرفيَّـة، منفتحـة عـلى الإسـهامات الجديـدة في النقـد والبلاغـة وتحليـل الخطـاب وغيرهـا مـن مظـانِّ المعرفـة.."[٨].

كـما ينهـض هـذا المشروع عـلى جملة مـن المفاهيـم لعـلَّ أبرزهـا ثنائيَّـة التسـاند والتقابل، وهمـا "مفهومـان ضاربـان في عمـق اختصاصـات البلاغـة واللِّسـانيَّات والشـعريَّة"[٩]. وهـذه الثنائيَّـة –التسـاند والتقابـل- تتـوازى مـع ثنائيَّـات أخـرى مثـل العلاقـات المركبيَّـة والعلاقـات الترابطيَّـة عنـد سوسـير، أو عنـاصر حـاضرة وأخـرى غائبـة كـما عنـد تـودروف، أو مفهـوم الانسـجام مـع لسـانيَّات النَّـصِّ، ومفاهيـم نظريَّـة القـراءة.."[١٠]. مِمَّـا يؤكِّـد أنَّ مفهـوم التسـاند حـاضر في مجـالات معرفيَّـة مختلفـة استـحضرها مُحَمَّـد بـازي واسـتفاد منهـا وطوَّرهـا لتنسـجم مـع مقترحـه التأويـليِّ.

٢- البنى النَّصِّيَّة (الدوائر الصغرى):

سـبق أن أشرنـا فيـما سبق إلى أنَّ التأويـل التسـانديَّ يَتَحَقَّقُ بـين البنى النَّصِّيَّـة أو الدوائر الصغـرى مـن جهـة، ثُـمَّ في انفتاحهـا عـلى البنـى الخارجيَّـة أو الموازيـات السـياقيَّة للتطالـب معهـا وتسـندها، فالبنـى النَّصِّيَّـة يقصـد بهـا "كلُّ المـؤشِّرات النَّصِّيَّـة الدالَّـة التي ينطلق منهـا

---

٦ بودرع, عبد الرحمن .نحو قراءة نصية في بلاغة القرآن الحديث, ط١ الدوحة: كتاب الأمة, (٢٠١٣), ٤٩.

٧ رجـوان, مصطفـى. "بلاغـة التقابـل والتأويـل التقابـلي: آفـاق جديـدة"، فصـول:," مجلـة النقـد الأدبي, العـدد١٠٤ .(٢٠١٨):٦٢٩.

٨ رجوان, مصطفى. في بلاغـة الخطـاب: مـن بديـع اللفـظ إلى بديـع التأويـل, تقديـم. محمـد بـازي, ط١ الأردن: دار كنـوز المعرفـة للنـشر والتوزيـع, (٢٠٢٠), ٤١.

٩ رجوان, ٤٧.

١٠ رجوان, ٤٧_٥٥.

الفعل التأويليُّ الباني للمعنى، من أفعال وحروف وأسماء وتراكيب نحويَّة وبلاغيَّة وعلامات سيميائيَّة قابلة للفهم والتأويل"[١١]. أي مجموع البنيات الجزئيَّة المؤدِّيَة للمعنى من لغة وصرف ونحو وبلاغة وقراءات...، تتساند فيما بينها وتتعاون على رفع منارة المعنى في الخطاب، إذ الحفر اللُّغويُّ يسند التخريج النحويَّ أو البلاغيَّ، والاشتقاق يعضِّد اللُّغة والنحو... ومن ثمَّ تساند الآليَّات النصِّيَّة فيما بينها.

لكن هذه البنى النَّصِّيَّة تظلُّ غير كافية في كثير من الأحايين للوصول إلى المعنى العميق الخفي، ممَّا يفرض على القارئ/المؤوّل الانتقال إلى الدوائر الكبرى أو الموازيات الخارجيَّة التي تمثِّل نماذج استبداليَّة أو بنيات نصِّيَّة غائبة في شكل نصوص أو معارف أو معلومات أو أخبار تتَّصل بالسياق الاجتماعيِّ والثقافيِّ والنفسيِّ الذي أنتج فيه النصُّ وبالمنظومة الثقافيَّة التي ينتمي إليها، وما أفرزته من معارف وقيم مشتركة، لا يمكن فصلها عن الخطاب سواء في مرحلة إنتاجه أم لحظة قراءته وتأويله. وتكمن أهمِّيَّتها في أنَّها تعمل كمرجِّحات لمعنى على آخر حينما تتعدَّد المعاني.

إنَّ مُحَمَّد بازِّي يقرُّ بأنَّ الاشتغال على البنى النصِّيَّة "تظلُّ محطَّة أوَّليَّة في بناء المعنى"[١٢]، فإنَّه في حاجة إلى عدد من النصوص الغائبة والأقوال قد تزيل الإبهام، وتوضِّح المبهم.

٣- البنى السياقيَّة (الدوائر الكبرى):

يقصد مُحَمَّد بازي بالبنى السياقيَّة تلك الآليَّة التي "تنفتح بموجبها القراءة على وسائط سياقيَّة من خارج النَّصِّ؛ وتتشكَّل من مختلف المرجعيَّات التي يعود إليها القارئ المؤوِّل لملء بياضات النصِّ الدالَّة وإغناء المعنى بموازيات أخرى: قرآنيَّة، وحديثيَّة، وشعريَّة، وخبريَّة، وموسوعيَّة، وغيرها"[١٣].

---

١١ بازي, التأويلية العربية: نحو نموذج تساندي في فهم النصوص والخطابات, ٣٥٢.
١٢ بازي, ١٦٥.
١٣ بازي, ١٨٧.

إنَّ الدوائر الكبرى أو الموازيَّات السياقيَّة هي موازيات خارج نصِّيَّة تحيط بالنصِّ وتؤثِّر على تشكيله وصناعته، وهي مرتبطة بالقارئ تُستخدم في دراسة وتحليل العلاقات بين النصِّ والسياق الذي أنتجه، فهي تشير إلى الأطر أو السياقات العامَّة التي تحكم إنتاج النصوص والخطابات وتؤثِّر فيهما، وتتعلَّق "الدوائر الكبرى" بالعوامل الثقافيَّة والاجتماعيَّة والسياسيَّة التي تشكِّل الخلفيَّة الفكريَّة والأيديولوجيَّة لأيِّ خطاب. هذه الدوائر تساعد في فهم كيفيَّة تفاعل النصوص مع هذه العوامل وكيف تعكسها أو تتحدَّى مفاهيمها.

ولا تفوتنا الإشارة إلى أنَّ التفاعل بين هذه الدوائر والمستويات كلِّها (صغرى وكبرى) وحضورها في ذهن المؤوِّل في أثناء عمليَّة التأويل ييسِّر الوصول إلى بناء فهم مريح ومنسجم مع كلِّ ما يرتبط بالنصِّ داخليًّا وخارجيًّا كما أنَّه (التفاعل) يخرج القارئ المؤوِّل من المآزق التي يقع فيها الفعل التأويليُّ، وهي ترجع أساسًا إلى افتراض معانٍ متعَدِّدةٍ.

ثانيًا: نموذج تطبيقيٌّ لتساند المستويات اللُّغويَّة في تفسير آيات القرآن الكريم

إنَّ خطاب التفسير متشابك العناصر ومتساند المستويات، ومادام هذا الخطاب ذا طبيعة لغويَّة ونصِّيَّة فتحليله لا بدَّ أن يتمَّ بالاحتكام إلى جملة من العلوم اللُّغويَّة وغير اللُّغويَّة، وهذه العلوم اللُّغويَّة متجاذبة ومترابطة، ولا يمكن لمفسِّر الخطاب بلوغ مراميه من دون الاطِّلاع عليها جملة وتفصيلًا، تبعًا لذلك فالمقاربة التساندِيَّة في تحليل هذا الخطاب هي السبيل الوحيد والأوحد لبلوغ المعنى فيه.

والناظر في تفسير البيضاويِّ المسمَّى ب **"أنوار التنزيل وأسرار التأويل"** يتَّضح له بجلاء مبدأ التساند في تفسير الآيات والسور وتأويلهما، إذ ينطلق من المعجم فيجعله منطلقًا عنده، ثُمَّ يسنده بما يفيده من صرف ونحو وغيرهما كلَّما دعت الضرورة وكانت الفائدة.

ولا تفوتنا الإشارة إلى أنَّ الحديث عن تساند مستويات اللُّغة ودوره في بيان المعنى في خطاب التفسير عند البيضاويِّ، فإنَّ هذا الطرح التسانديَّ لن يكون سوى تجميعٍ لمؤشِّرات خفيَّة تحكَّمت في اشتغال البيضاويِّ في خطابه التفسيريِّ، فهو لا يصرِّح به في مقدِّمته ولا في اشتغاله، وإنَّما يتَّضح ذلك من خلال استعانته بالبنيات النَّصِّيَّة[١٤] (صوتًا، ومعجمًا، ونحوًا، وبلاغة، وقراءات) في النهوض بالمعنى وإقامته، وانفتاحه على مؤشِّرات خارجية أو كما يسميها الدكتور بازي بـ "البنيات السياقيَّة" من مناسبة وحديث، وشواهد شعريَّة...

١- البنى النَّصِّيَّة:

أ- تساند المدخل المعجميِّ والصَّرفيِّ:

في تحقيق لفظة "أمشاج" في قوله تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ﴾ (الإنسان: ٢)

قال البيضاويُّ: {**أَمْشَاجٍ**} "أخلاطٍ جمع مِشْجٍ أو مَشْجٍ أو مشيج من مشجتُ الشيءَ إذا خلطتُه، وجمَعَ النطفةَ به لأنَّ المرادَ بها مجموعُ منيِّ الرجلِ والمرأةِ وكلٌّ منهما مختلف الأجزاء في الرقَّةِ والقوامِ والخواصِّ، ولذلك يصير كلُّ جزء منهما مادَّةَ عضوٍ"[١٥].

لقد راح البيضاوي يبحث في بنية أمشاج، فقال إنها جمع لَمَشج بفتح الميم وتسكين الشين، أو مِشْج، أو مَشِيج، وقام بالقياس على أخلاط، وزنًا ودلالةً، لأن النطفة مختلطة من مني الرجل والمرأة، وفي الموضع نفسه قال الفراء (٢٠٧هـ): "الأمْشاجُ هي الأخْلاطُ: ماءُ الرجلِ، وماء المرأَةِ، والدمُ، والعَلَقَة، ويقال للشيء من هذا إذا خلط مَشِيجٌ، كقولك خَلِيطٌ، ومَمْشوجٌ، كقولك مَخْلوطٌ"[١٦].

وجاء في اللسان "مشج: المَشْجُ والمَشِجُ والمَشَجُ والمَشِيجُ: كل لونين اختلطا، وقيل

١٤ بازي, ٣٥٢.

١٥ البيضاوي, ناصر الدين. أنوار التنزيل وأسرار التأويل, تحقيق. محمد صبحي و محمود أحمد الأطرش, ط١ (بيروت: دار الرشيد, ٢٠٠٠), ٤٧٦.

١٦ الفراء, معاني القرآن, تحقيق. احمد علي النجر و أحمد يوسف نجاتي, ط٣ (عالم الكتب, ١٩٨٣), ٢١٤.

هو كل شيئين مختلطين، والجمع أمشاجٌ مثل يتيمٍ وأيتامٍ(...(ومَشَجْتُ بينهما مَشْجًا: خلطتُ، والشيء مَشيجٌ(...)"[١٧].

يتَّضحُ لنا استعانة البيضاويِّ بالمدخل الصرفيِّ في تفسيره للآية، وما إن ينتهي من تفسير لفظة (أمشاج)، حتَّى ينتقل إلى لفظة جديدة، وهذا يوضِّح لنا أنَّه واعٍ لأهمِّيَّة التفسير اللُّغويِّ، ولا شكَّ أنَّه خبر مركزيَّته، فجعله المؤسِّسَ لتفسيره، ومنه يكون الانطلاقُ لتبليغ مقاصد كتاب الله تعالى، وإيصالها إلى الأفهام، تساندًا مع مستويات أخرى (صرفًا، ونحوًا، وبلاغةً)، وعن طريقها يتمُّ الكشف عن المعنى العامِّ لآية ما، أو لسورة من سور القرآن.

وممَّا يتكامل معه المدخل المعجميُّ ويتطالب للنهوض بالمعنى، المدخل الصرفيّ والاشتقاقيّ، الذي بدا حاضرًا في المادَّة اللُّغويَّة، من خلال تقصِّي أصول الكلمات، وتتبُّع اشتقاقاتها.

ولَّما كان المدخل اللُّغويُّ مستوى من مستويات فهم القرآن الكريم، كانت حاجة المفسِّر لعلم التصريف ضروريَّة، به يقف عند أصول الكلمات ومصادرها ويدرك معانيها. فالتصريف "يحتاج إليه جميع أهل العربيَّة أتمَّ حاجة، وبهم إليه أشدّ فاقة؛ لأنَّه ميزان العربيَّة، وبه تعرف أصول كلام العرب من الزوائد الداخلة عليها، ولا يوصل إلى معرفة الاشتقاق إلَّا به"[١٨]. فهو يساعد في بلوغ دلالات الكلمات انطلاقًا من معرفة صيغها وأوزانها وسبل اشتقاقها، وما لحقها من زيادة أو نقصان.

من هذا المنطلق، يمكن اعتبار المستوى الصرفيِّ والاشتقاقيِّ مدخلاً لكلِّ من أراد تفسير القرآن الكريم، فالمفسِّر إذا "وجد كلمة مبهمة استطاع تصريفها، فاستطاع معرفة مادَّتها ومعناها ومن جهل علم التصريف تعرَّض لأخطاء مضحكة في التفسير"[١٩]. وقد رأينا كيف تنوَّعت معاني المفردات تبعًا لتنوُّع اشتقاقاتها، وتعدُّد

١٧ ابن منظور, لسان العرب, مادة مشج , (بيروت: دار صادر, د.ت.) .٣٦٧.
١٨ ابن جني, المنصف, تحقيق. أمين مصطفى, إبراهيم عبد الله, ط ١, ج١ (القاهرة: دار إحياء التراث القديم, ١٩٥٤),٢.
١٩ الشرباصي, أحمد . قصة التفسير, ط١ (بيروت: دار الجيل, ١٩٩٠), ٤٤٤.

صيغها من المفرد إلى الجمع، ومن اسم الفاعل إلى اسم المفعول، والمصدر والتصغير والتكبير، إلى غير ذلك من الاشتقاقات.

لقد أولى البيضاويُّ، رحمه الله، أهمِّيَّة للصَّرْفِ، والقارئ لتفسيره يقف على ذلك منذ الصفحة الأولى، فكيف يتجلَّى ذلك في تفسيره لسورة الإنسان؟

قال البيضاويُّ في قوله تعالى: ﴿**إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ**﴾(الإنسان: ٢): "وجمع النطفة به؛ لأنَّ المراد بها مجموع مَنْي الرجل والمرأة... وقيل مفرد كأعشار وأكباش".

إنَّ قول البيضاويَّ، في هذا الشاهد، ينبئ عن اعتماده علم الصرف في تحديد أصول الكلمات المفردة وتتبع اشتقاقاتها، فقوله "وجمع النطفة به لأنَّ المراد به مجموع مني الرجل والمرأة" يقصد به أنَّ لفظة "نطفة" جاءت مفردًا ووصفت بلفظة "أمشاج" وهي جمعٌ إنَّما للدلالة على ما في النطفة من اجتماع لمني الرجل والمرأة وحملها لصفاتهما وكلٌّ منهما مختلف الخصائص والصفات، فوصف النطفة بأمشاج مع كونها مفردًا والأمشاج جمعًا ولا مطابقة بينهما؛ لأنَّ النطفة هي ذلك المجموع المؤلَّف من مني الرجل والمرأة، فصارت من جهة المعنى جمعًا، إذاً ففاعليَّة الصرف في إقامة هذا المعنى هنا واضحة. وقوله "وقيل مفرد كأعشار وأكباش" هو إيراد لقول من سبقه في التفسير، لأنَّ من المفسِّرين من قال إنَّ كلمة أمشاج مفرد لا جمع، بما أنَّ صيغة أفعال فيها لفظ مفرد، ولذلك وقعت صفة لـ"نطفة" وهي مفرد[٢٠].

لقد توجَّه البيضاويُّ إلى الصرف في تناوله لكلمة "أمشاج" فزاوج في بنائه للمعنى بين التحليل المعجميِّ لفهم معنى الكلمة، والتحليل الصرفيِّ لمعرفة أهي مفرد أم جمع، وفي هذا مؤشِّر على تساند الآليَّات التأويليَّة في عمليَّة التحليل وبناء المعنى، فالبيضاويُّ أقرَّ في بادئ الأمر أنَّ أمشاج جمع لِمِشْج أو مَشْج أو مَشِيج، ثُمَّ سوَّغ مجيء أمشاج صفة للنطفة مع أنَّ الأولى مفرد والثانية جمع، واعتبر أنَّ النطفة وإن كانت مفردًا في الوزن، فإنَّها من حيث المعنى دالَّة على الجمع أي: جامعة بين مني الرجل والمرأة، إذًا،

٢٠ البيضاوي, أنوار التنزيل وأسرار التأويل, ٤٧٦.

فكلمة أمشاج "تستعمل مفردًا وجمعًا شأن كلمة هجان ودلاص وبشر وفلك وغيرها. فيقال في المفرد مَشَج بفتحتين كبطل وأبطال، ويقال مَشِيج كشَرِيف وأشراف وجمعهما أمشاج. ويقال في المفرد أمشاج أيضًا، كقولهم برمة أعشار وبرد أكباش وثوب أسمال. وعلى هذا يقال: نطفة مشج ونطفة مشيج ونطفة أمشاج"[٢١].

هكذا تتَّضح لنا فاعليَّة المدخل الصرفيِّ في توضيح المعنى في الخطاب التفسيريِّ وتطالبه مع المدخل المعجميِّ في بناء الدلالة. وقد رأينا في هذا الشاهد كيف أسهم الصرف في بيان الغرض من وقوع الكلام على جهتي المفرد والجمع ودلالة كلٍّ منهما.

ب- تساند المدخل النحويِّ والبلاغيِّ:

في **التأويل التسانديِّ** لقوله تعالى: ﴿ **إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا * إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلَ وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا**﴾(الإنسان: ٣ _ ٤) ،

ما إن ينتهي البيضاويُّ، رحمه الله، من تفسير آية حتَّى يشرع في الأخرى، فيجعل علوم اللُّغة مطيَّتَهُ، ففي الآية –قيد التحليل- يتَّخذ من النحو موجِّهًا للمعنى، وكاشفًا لدلالة التركيب، إذ يقول معلِّقًا على قوله تعالى: ﴿**إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا**﴾ (الإنسان: ٣): "حالان من الهاء، وإمَّا للتفصيل أو التقسيم أي هديناه في حاليه جميعًا أو مقسومًا إليهما بعضهم شاكرًا بالاهتداء والأخذ فيه، وبعضهم كفورًا بالإعراض عنه، أو من السبيل"[٢٢].

إنَّ البيضاويَّ من خلال هذا النَّصِّ يعرض مسألتين، **إحداهما**: أنَّ لفظتي "شاكرًا" و"كفورًا" جاءتا في موضع الحال للضمير الهاء في (هديناه)، أو للسبيل، و**الأخرى**: أنَّ إمَّا في الآية للتفصيل أو التقسيم.

فقوله "حالان من الهاء" أي: من الضمير في (هديناه) ودالٌّ على الإنسان، فهو

٢١ فاضل السامرائي, على طريق التفسير البياني ج١ (جامعة الشارقة, ٢٠٠٢), ١٥٥.
٢٢ البيضاوي, أنوار التنزيل وأسرار التأويل, ٤٧٦.

إمَّا شاكرًا أو كفورًا، وأمَّا قوله أو "من السبيل" فمعطوف على قوله من الهاء، فهو يُورد الإعرابين معًا، من غير ترجيح لأحد منهما.

وفي إعراب شاكرًا وجهان، "أحدهما: أنَّه حال من مفعول هديناه، أي: هديناه مبيِّنًا له كلتا حالتيه، -وهو قصدُ البيضاويِّ- قال أبو البقاء: (وقيل: هي حال مقدَّرة). والثاني: أنَّه حال من السبيل على المجاز"[٢٣]. وقال الزمخشريُّ: " شاكرًا وكفورًا حالان من الهاء في هديناه أي: مكَّنَّاه وأقدرناه في حالتيه جميعًا أو دعوناه إلى الإسلام بأدلَّة العقل والسمع(...) ويجوز أن يكونا حالين من السبيل أي: عرفناه السبيل إمَّا سبيلاً شاكرًا، وإمَّا سبيلاً كفورًا".[٢٤] فتوافق كلامه مع ما ذهب إليه البيضاويُّ حين إراده الإعرابين معًا.

إذن، فلفظتا شاكرًا وكفورًا حالان من الهاء في (هديناه)، ولكن يجوز أن يكونا حالين من السبيل على المجاز فيوصف السبيل بمن سلكه، وفي هذا استعانةٌ بالنحو والإعراب في بناء المعنى وتكاملٌ مع البنيات البلاغيَّة -المجاز- في بيانه.

وأمَّا قوله "إمَّا للتفصيل أو التقسيم" أي: أنَّ معناها التفصيل ها هنا، فكلمة (إمَّا) لَّما دخلت فصلت بين الحالين "شاكرًا" و"كفورًا". أو معناها التقسيم، أي: قسّمت، فجعلت كلَّ قسم مقسومًا إليهما بعضهم شاكر بالاهتداء والأخذ فيه، وبعضهم كفور بالإعراض عنه، فيكون المعنى على التفصيل هو: هديناه في حاليه جميعًا، وعلى التقسيم هو: هديناه السبيل ثُمَّ جعلناه تارة شاكرًا وتارة كفورًا.

ولـ "إمَّا" خمسة معانٍ: "أحدها: الشكُّ نحو: جاء إمَّا زيد وإمَّا عمرو، والإبهام نحو: ﴿**وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ**﴾، والتخيير نحو: ﴿**إِمَّا أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا**﴾ والإباحة نحو: اقرأ إمَّا فقهًا، وإمَّا نحوًا.

٢٣ الحلبي, السمين. الدر المصون في علوم الكتاب المكنون, تحقيق. أحمد محمد الخراط (دمشق - سوريا: دار القلم, د.ت.) .٥٩٤,

٢٤ الزمخشري, محمود بن عمر. الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل, اعتنى به وخرج أحاديثه وعلق عليه خليل مأمون شيحا (بيروت-لبنان: دار المعرفة, ٢٠٠٩), ١١٦٤.

والتفصيل: نحو "إمَّا شاكرًا وإمَّا كفورًا""[٢٥]، ولكن هناك خلافًا بين النحويِّين حول إمَّا في الآية، "قال الكوفيُّون: (إنْ) ها هنا تكون جزاء، و(ما) زائدة. أي بيَّنَّا له الطريق إن شكر أو كفر. واختاره الفرَّاء. ولم يُجِزه البصريُّون، إذ لا تدخل (إنْ) للجزاء على الأسماء، إلَّا أن يضمر بعدها فعل"[٢٦].

يتَّضح جليًّا من خلال هذا الشاهد أنَّ هناك خلافًا بين النحويِّين حول (إمَّا)، وما يهمُّنا هو أنَّ البيضاويَّ يذهب مذهب البصريِّين، وليس يعنينا هنا صواب أو خطأ ما ذهب إليه بقدر ما يعنينا استنباطه للمعنى انطلاقًا من النحو والإعراب.

ولا يكتفي البيضاويُّ في تفسيره للآيتين بالنحو فقط، بل يستند إلى المدخل البلاغيِّ في رفع منارة المعنى، ومن ذلك وقوفه عند التقديم والتأخير الواقع في قوله تعالى: ﴿**إِنَا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلًا وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا**﴾ (الإنسان: ٤)، ذلك أنَّ تقديم اللَّفظ أو تأخيره يكون لعلَّة بيانيَّة، فالتعبير القرآنيُّ يجعل اللَّفظ في المكان الأليق به، فتارة يتقدَّم، وتارة يتأخَّر، وهذا سرٌّ من أسرار إعجازه، وجزءٌ من بلاغة النَّصِّ القرآنيِّ وفصاحته، فكان لزامًا على المفسِّر الوقوف عند هذا الفنِّ الرفيع، لاستكناه معانيه واستخراج مقاصده، فما تقدَّم لفظ في موضع وتأخَّر في موضع آخر إلَّا لما يتطلَّبه المقام القرآنيُّ وما يقتضيه سياق الكلام.

والبيضاويُّ، في تفسيره، قد خبر مقاصد التقديم والتأخير، وتذوَّق حلاوته، فتراه لا يكتفي بعرض آيات القرآن الكريم وتذكير الناس بأحكامها، بل يستخلص معانيه ويوضِّحها، ومثال ذلك قوله في الآية مفسِّرًا ومؤوِّلًا: "وتقديم وعيدهم وقد تأخَّر ذكرهم ؛ لأنَّ الإنذار أهمُّ وأنفعُ، وتصدير الكلام وختمه بذكر المؤمنين أحسن"[٢٧].

لم يكتفِ البيضاويُّ، في هذا التعليق، بالإشارة إلى إجراء الكلام على جهة التقديم والتأخير فقط، بل بيَّن علَّة هذا التقديم والتأخير، ووضَّح فائدته بقوله: "لأنَّ الإنذارَ

٢٥ السيوطي, همع الهوامع في شرح جمع الجوامع, تحقيق عبد الحميد هنداوي (مصر: المكتبة التوفيقية,د.ت.), ١٧٧.
٢٦ القرطبي, الجامع لأحكام القرآن, تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي, ط١ (مؤسسة الرسالة, ٢٠٠٦), ٤٤٩.
٢٧ البيضاوي, أنوار التنزيل وأسرار التأويل, ٤٧٧.

أهمُّ وأنفعُ" في هذا المقام، والمقصود بتقديم الوعيد أي: تقديم قوله تعالى: ﴿**إِنَا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلًا وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا**﴾ بينما تأخَّر ذكرهم أي:(الكافرين) في قوله تعالى: ﴿**إِمَّا شَاكِرًا وإِمَّا كَفُورًا**﴾، فأوَّل الكلام كان (الشاكر) وآخره (الكفور) لذلك كان من الطبيعيِّ تقديم أوصاف المؤمنين وجزائهم على وعيد الكافرين ومصيرهم، ولكنَّ التعبير القرآنيَّ يدقِّق في وضع الألفاظ ورصف بعضها بجنب بعض تدقيقًا عجيبًا، فهناك مواطن تقتضي التقديم وهذا المثال دليل على ذلك، فتقديم الوعيد وتأخير ذكرهم كان لغرض الإنذار، وهو أنسب بالمقام وأنفع، قال أبو السعود: "وتقديم وعيدهم مع تأخُّرهم للجمع بينهما في الذكر كما في قوله تعالى ﴿**يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَا الذِينَ أَسْوَدَتْ وُجُوهُهُمْ**﴾ ولأنَّ الإنذارَ أهمُّ وأنفعُ وتصدير الكلام وختمه بذكر المؤمنين أحسنُ على أنَّ في وصفهم تفصيلًا ربَّما يخلُّ تقديمه بتجاوب أطراف النظم الكريم"[٢٨]، وهذا القول يوضِّح كلام البيضاويِّ ويعضِّده.

لقد عمل البيضاويُّ على إبراز المعنى المقصود من التأخير والتقديم، كما صاغ تعليلًا لهذا التقديم بقوله (لأنَّ الإنذارَ أهمُّ وأنفعُ)، ونحن نعزِّز القول في تحليل هذا التعليق نورد ما قاله الدكتور فاضل السامرائيُّ: "وقد تقول: ولم قدَّم الشاكر على الكفور في حين قدَّم عذاب الكافرين على ثواب المطيعين؟ والجواب أنَّه أفاض في جزاء الشاكرين في حين اختصر عقاب الكافرين وأوجز فيه فناسب التقديم. (...)، كما أنَّ هذا التقديم في أوَّل السورة نظير التقديم في آخرها في قوله ﴿**يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا**﴾ فقد قدَّم من أدخلهم في رحمته ومنهم الشاكرون وذكر بعدهم الظالمين ومنهم الكفور"[٢٩].

إنَّ البيضاويَّ، في تحليله للبنيات البلاغيَّة يقف عند الغرض منها ويوضِّح فائدتها،

---

٢٨ أبو السعود, إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم, ج٩ (بيروت-لبنان: دار إحياء التراث العربي, د.ت.) .٧١,

٢٩ السامرائي, على طريق التفسير البياني, ١٦١ _ ١٦٢.

فيفصل القول في ظاهرها وباطنها، ولو على جهة الإيجاز والاختصار.

ومثال آخر على ذلك، تعليقه على قوله تعالى ﴿**وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ**﴾(الإنسان: ٢٦) قال: "وبعض الليل فصلِّ له تعالى، ولعلَّ المراد به صلاة المغرب والعشاء، وتقديم الظرف لما في صلاة اللَّيل من مزيد الكلفة والخلوص"[٣٠].

إنَّ إيرادنا لهذا الشاهد هنا ليس لغرض التحليل، وإنَّما لتأكيد ما ذهبنا إليه، وهو أنَّ البيضاويَّ كلَّما صادف بنية بلاغيَّة، سواء كانت -استعارةً، أو تشبيهًا، أو تأخيرًا وتقديمًا...- إلَّا وبين ما فيها من معانٍ وأظهر بلاغتها ومعناها، وكذلك جماليَّة التعبير فيها، فهو يوظِّف كلَّ آليَّة تأويليَّة (معجمًا ونحوًا، صرفًا وبلاغةً) تساعده في بناء خطابه التفسيريِّ وفق منهج تكامليٍّ يربط بينها حتَّى يلملم المعنى ويقدِّمه في أحسن صورة.

٢- البنى السياقيَّة:

رغم فاعليَّة البنى النَّصِّيَّة في التفسير وأهمِّيَّتها في بيان المعنى، لكنَّها تبقى قاصرة في بعض الأحايين ما يدفع المفسِّر لتعضيد تأويله بما يسمِّيه مُحَمَّد بازي بالموازيات الخارجيَّة من: أسباب النزول، والناسخ والمنسوخ، والمكِّيِّ والمدنيِّ، والإسرائيليَّات، والشواهد الحديثيَّة والشعريَّة وغير ذلك.. "فبعد أن يكون المفسِّر قد انتهى من إنطاق البنى النَّصِّيَّة، يبدأ في استحضار الموادِّ السياقيَّة الخارجيَّة التي يستدعيها القارئ المفسِّر للفهم وبناء المعنى في خطاب التفسير، فحضور هذه البنيات الخبريَّة أو المعرفيَّة التي لها ارتباطٌ بالنَّصِّ ضروريٌّ، إذ من خلالها يعمل المفسِّر على إشباع صناعة خطابه التفسيريِّ. وفي ذلك يَتَحَقَّق التطالب بين البنى النَّصِّيَّة وما يتعلَّق بها من سجلَّات خارجيَّة، ولهذا التطالب أثرٌ كبير في المعنى تأكيدًا أو توسيعًا أو دعمًا وتعزيزًا"[٣١].

---

٣٠ البيضاوي, أنوار التنزيل وأسرار التأويل, ٤٨١.

٣١ بازي, محمد. صناعة الخطاب: الأنساق العميقة للتأويلية العربية, ط١ (عمان_ الأردن: دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع, ٢٠١٥), ٦٦ _ ٦٧.

أ- المكِّيُّ والمدنيُّ

لا ينكر أحدٌ عناية المفسِّرين بالتأويل السياقيِّ بوصفه معضِّدًا لتأويل النَّصِّ كذكر أسباب النزول، ومناسبة السورة لما قبلها وما بعدها، والمكِّيّ والمدنيّ والناسخ والمنسوخ وغير ذلك.. فاستحضار المفسِّر للمكِّيِّ والمدنيِّ، هو استحضار للتسلسل التاريخيِّ، باعتباره قرينة مقاميَّة مهمَّة يستوجبها التفسير السليم والمنطقيُّ للآيات.

والبيضاويُّ، رحمه الله، سلك هذا المسلك حين قال في بداية تفسيره لسورة الإنسان: "مكِّيَّة وآيها إحدى وثلاثون آية"[٣٢].

انطلق البيضاويُّ في تفسيره للسورة بالإشارة إلى أنَّ السورة مكِّيَّة وليست مدنيَّة، إذن فهو يحدِّد مكان نزول الوحي ووقته، لأنَّ معرفة المكان ووقته يفيد في فهم الآيات، وما يرتبط بذلك من تمييز بين الناسخ والمنسوخ..

ولا تفوتنا الإشارة إلى أنَّ لكلٍّ من المكِّيِّ والمدنيِّ مميزاتٍ وخصائصَ، فمن خصائص المكِّيِّ مثلًا: الدعوة إلى توحيد الله وعبادته وحده، وإثبات الرسالة والبعث والجزاء، وذكر القيامة وهولها، والنار وعذابها.. على خلاف المدنيِّ الذي سعى إلى بيان العبادات، والمعاملات، وسنِّ نظام الأسرة، وقواعد الحكم، ومسائل التشريع، والتفصيل في مسألة الإرث إلى غير ذلك..

من أجل هذا وجدنا الإمام البيضاويَّ قد عمل على الاستعانة بالمكِّيِّ والمدنيِّ في تفسير سورة الإنسان، إذ حَدَّد مَكِّيَّتها منذ البداية.

يحاول البيضاويُّ من خلال استحضار هذا الشاهد لابن عبَّاس ليعضِّد به معنى مقصود، باعتبار أقوال الصحابة "قناة تأويليَّة مهمَّة، ومادَّة مرويَّة "لما شهدوه من القرائن والأحوال التي اختصُّوا بها، ولما لهم من الفهم التامِّ والعلم الصحيح". فهذه الأقوال تضيء الجوانب التي تبدو معتمة للمفسِّر، ولهذا استعان بها البيضاويُّ في تفسيره.

٣٢ البيضاوي, أنوار التنزيل وأسرار التأويل, ٥٥١.

- الشاهد الحديثيُّ:

من الموازيَّات الخارجيَّة التي يستعين بها البيضاويُّ في تفسيره الشواهد، وفي مقدِّمتها الشاهد الحديثيُّ بلحاظه نصًّا "من النصوص الغائبة التي تقدِّم إضاءات هامَّة للبنية النَّصِّيَّة موضوع الإشكال"[٣٣]، من خلاله يبني المعنى أو يرفع منارته، ويوضِّح الخفيَّ ويكشفه.

ومن الأمثلة التي تبيِّن استعانة البيضاويِّ بالشاهد الحديثيِّ تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدانٌ مُخَلَّدُونَ إِذا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤاً مَنْثُوراً، وَإِذا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيماً وَمُلْكاً كَبِيراً﴾(الإنسان: ١٩ _ ٢٠)، قال: وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدانٌ مُخَلَّدُونَ دائمون. إِذا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤاً مَنْثُوراً من صفاء ألوانهم وانبثاثهم في مجالسهم وانعكاس شعاع بعضهم إلى بعض... وفي الحديث "أدنى أهل الجنَّة منزلة ينظر في ملكه مسيرة ألف عام يرى أقصاه كما يرى أدناه"..."[٣٤].

لعلَّ أفضل أداة تأويليَّة يوظِّفها المفسِّر هي تفسير النَّصِّ بالنَّصِّ، سواء أكان نصًّا قرآنيًّا أو حديثيًّا، وهذا هو صنيع البيضاويِّ في هذه الآية وفي تفسيره كاملًا.

ج- الشاهد الشعريُّ:

لا يقف البيضاويُّ في استدعائه للنصوص الموازية عند الشاهد الحديثيِّ فقط، وإنَّما يعمل على توظيف كلِّ الشواهد التي تخدم تفسيره وتسنده، ومن ذلك الشاهد الشعريُّ بوصفه مادَّة تأويليَّة مهمَّة لا يخلو أيُّ تفسير منها، سواء للاحتجاج بها على غريب القرآن ومشكله، أو من خلال توظيفها لترجيح تفسير نحويٍّ على آخر ودعم تخريج دلاليٍّ ما.. يقول ابن عبَّاس: "الشعر ديوان العرب فإذا خفي علينا من القرآن الذي أنزله الله بلغة العرب، رجعنا إلى ديوانها، فالتمسنا معرفة ذلك منه"[٣٥].

---

٣٣ بازي, صناعة الخطاب: الأنساق العميقة للتأويلية العربية, ٦٩.
٣٤ البيضاوي, أنوار التنزيل وأسرار التأويل, ٥٥٣.
٣٥ بازي, صناعة الخطاب: الأنساق العميقة للتأويلية العربية, ٧٤.

والبيضاويُّ بعد أن خبر دور الشاهد الشعريِّ وظَّفه في تفسيره واستعان به، ومن ذلك تفسيره لقوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ﴾ (الإنسان: ١)، قال: "﴿هَلْ أَتى عَلَى الْإِنْسانِ﴾: استفهام تقرير وتقريب ولذلك فسّر بقد وأصله أهل كقوله: أهل رَأَوْنَا بِسَفْحِ القَاعِ ذِي الأَكم"[٣٦]. فقوله: "أهل رَأَوْنَا بِسَفْحِ القَاعِ ذِي الأَكم" هو استحضار لنصٍّ غائب عبارة عن بيت شعريٍّ في سياق الاحتجاج عن دلالة الاستفهام في الآية الدالّ عنده على التقرير والتقريب، والتقرير "معناه حمل المخاطب على الإقرار والاعتراف بأمر قد استقرَّ عنده ثبوته أو نفيه"[٣٧]، فخرج الاستفهام هنا من طلب الفهم والاستعلام إلى التقرير من أجل الاعتراف بفضل الله تعالى على خلقه.

فلتأكيد هذا التخريج ودعمه لجأ البيضاويُّ إلى الشاهد الشعريِّ ليسند تفسيره للاستفهام، ودليله البيت الشعريّ:

سائل فوارس يربوع بشدّتنا ... أهل رأونا بسفح القاع ذي الأكم

لقد ذهب البيضاويُّ إلى أنَّ حرف "هل" هنا فيه معنى "قد"، وأنَّ الاستفهام إنَّما هو مستفاد من همزة مقدَّرة معها لدلالة السياق على ذلك، بمعنى "قد أتى"، وفي هذا خلاف بين النحويِّين والمفسِّرين، فمنهم من ذهب مذهبه، ومنهم من خالف قوله وأكَّد على أنَّ هل على بابها من الاستفهام المحض، وفي هل وجهان: أحدهما أنَّها بمعنى "قد" وهو قول "الزمخشريِّ (٥٣٨هـ)"، فهل عنده أبدًا بمعنى قد، وأنَّ الاستفهام مستفاد من همزة مقدَّرة، وقد نُقل عن سيبويه (١٨٠هـ) قوله: "إنَّ هل في قولهم أهل بمعنى قد إلَّا أنَّهم تركوا الألف قبلها لأنَّها لا تقع إلَّا في الاستفهام"[٣٨]، والمستفاد من كلامه أنَّ هل إنَّما هي بمنزلة قد، مع ترك الألف لوقوع هل في الاستفهام، وأصلها أهل، ولمَّا كثر استعمالها في الاستفهام حذفت الألف وتضمَّنت معناها.

٣٦ البيضاوي, أنوار التنزيل وأسرار التأويل, ٤٧٦.

٣٧ ابن هشام الأنصاري, مغني اللبيب عن كتب الأعاريب, تحقيق مازن المبارك و حمد علي حمد الله, ط١ (دمشق: دار الفكر, ١٩٦٤), ٩٥.

٣٨ محمد الحنفي, حاشية محيي الدين شيخ زاده, تحقيق. محمد عبد القادر شاهين, ط١ (بيروت-لبنان: دار الكتب العلمية, ١٩٩٩), ٤٢٩.

والثاني أنَّها لا تأتي بمعنى قد وإنَّما هي للاستفهام، وذهب إلى ذلك جماعة، منهم ابن هشام، ومكِّيّ، والزجَّاج... ولكن مع اختلافهم في الآية. يقول ابن هشام: "فزعموا أنَّ هل لا تأتي بمعنى قد أصلا. وهذا هو الصواب عندي"[٣٩].

ولَّما كان الشاهد الشعريُّ أداة تأويليَّة مهمَّة في خطاب التفسير جعله البيضاويُّ مطيَّة يركبها كلَّما دعت الحاجة إلى ذلك، ومثال آخر لتوظيفه له قوله في سياق تفسير قوله تعالى: ﴿لاَ يَرَوْنَ فِيهَا شَمْساً وَلاَ زَمْهَرِيراً﴾ (الإنسان: ١٣)، قال: "يحتملها وأن يكون حالاً من المستكن في ﴿متكئين﴾، والمعنى أنَّه يمرُّ عليهم فيها هواء معتدل لا حارّ محم ولا بارد مؤذٍ، وقيل الزمهرير القمر في لغة طيِّء قال راجزهم:

وَلَيْلَةٌ ظَلاَمُهَا قَدِ اعْتَكَر ... قَطَعْتُهَا وَالزَّمْهَرِيرُ مَا زَهَرْ

والمعنى أنَّ هواءها مضيء بذاته لا يحتاج إلى شمس وقمر"[٤٠].

إنَّ البيضاويَّ من خلال هذا الشاهد وهو يسعى إلى تفسير لفظة الزمهرير أورد رأيًا وصدَّره بـ: "قيل" مفاده أنَّ الزمهرير بمعنى القمر، واستدلَّ على صحَّة ذلك ببيت شعريٍّ يؤكِّد تفسيره.

هكذا يتَّضح لنا أنَّ البيضاويَّ قد استشهد بالشواهد الشعريَّة بلحاظها موازيات نصِّيَّة تخدم المفسِّر وتسند تفسيره وتعضِّد تأويله، فهي تحضر عنده لتبرز استعمالًا نحويًّا مشابهًا، أو توظيفًا لغويًّا للفظة قيد البيان. أو لإبراز وجه بلاغيٍّ، تتوضَّح من خلاله جماليَّات التعبير القرآنيِّ[٤١].

إنَّ حضور الشاهد الشعريَّ في تفسير البيضاويِّ يؤدِّي وظائف عديدة، فهو يسند تفسيره اللُّغويَّ تخريجه النحويَّ وتأويله البلاغيَّ، كما أنَّه حجاج خفي بصحَّة قوله، سواء كان استشهادًا أو استئناسًا، من خلاله يهدف البيضاويُّ إلى مزيد من الإقناع.

---

٣٩ الأنصاري, مغني اللبيب عن كتب الأعاريب, ٣٨٨.

٤٠ البيضاوي, أنوار التنزيل وأسرار التأويل, ٥٥٣.

٤١ بازي, صناعة الخطاب: الأنساق العميقة للتأويلية العربية, ٧٥.

وخلاصة القول، إنَّ النصوص الموازية بوصفها موجِّهَات للمعنى ومساعدة على بيانه حاضرة في تفسير البيضاويِّ، ومن خلالها عمل على تعضيد تفسيره للآيات، وتدعيم تخريجه النحويِّ أو البلاغيِّ أو الصرفيِّ..

ولقد أكَّد يوسف أحمد عليّ في كتابه "البيضاويُّ ومنهجه في التفسير" أنَّ البيضاويَّ قد جمع في تفسيره بين مستويات الدرس اللُّغويِّ وعلوم القرآن وأقوال السابقين، يقول: "تفسير البيضاويّ فقد جاء حافلاً بعلوم القرآن، جمع فيه أقوال السابقين من الفقهاء والمحدَثين والنحويِّين بإيجاز غير مخلٍّ، واختصار يؤدِّي إلى المعنى المقصود، ويبيِّن ما أشار إليه القرآن من العلوم السامية والحكم الراقية، والحقائق التي يقف دونها أرباب العقول كأسباب النزول، والناسخ والمنسوخ، والمُحكم والمتشابه، والعامّ والخاصّ، والمطلق والمقيَّد، والحقيقة والمجاز، والاستعارة، والأمثال، والتعريض والكناية، والخبر والإنشاء، والأقسام، والجدل، وفضائل القرآن، وموهم التعارض والاختلاف إلى غير ذلك من علوم القرآن"[٤٢].

٤٢ علي, يوسف أحمد. "البيضاوي ومنهجه في التفسير," إشراف محمد شوقي خضر السيد (جامعة أم القرى, ١٩٩٧), ١٥١ _ ١٥٢.

الخاتمة

صفوة القول، إنَّ التأويل التساندي في الخطاب التفسيريِّ من خلال نموذج تفسير **"أنوار التنزيل وأسرار التأويل"** يَتَحَقَّق على مستوى الآية أوَّلًا، انطلاقًا من تساند المداخل اللُّغويَّة معجمًا وصرفًا ونحوًا وبلاغة.. ليُسهم في بيان المعنى في الآية، كما تنفتح هذه المداخل اللُّغويَّة على موازيات سياقيَّة تعضِّدها وتسند تخريج تأويلها. علاوة على ذلك فالتساند يَتَحَقَّق بين آيات السورة الواحدة سواء بين البنى النَّصِّيَّة فيما بينها أو بينها والموازيات خارج نصِّيَّة التي يستدعيها المؤوِّل لتعضيد تخريجه.

كما اتَّضح لنا أنَّ البيضاويَّ يجعل العودة إلى المادَّة اللُّغويَّة عنصرًا أساسًا في الفهم والتفسير، فالمدخل اللُّغويُّ هو المؤسِّس لتفسيره، وعليه يقام ما بعده من بناء للمعنى، لأنَّ الألفاظ تتعدَّد دلالتها بتعدُّد استعمالاتها واختلاف سياقاتها، وتبعًا لذلك يختار المفسِّر ما يناسب المقام والسياق، وقد تقرَّر عندنا أثناء المبحث المعجميِّ أنَّ هناك خيطًا ناظمًا بين التحليل المعجميِّ والتحليل الصرفيِّ وتساندهما في بيان المعنى. فالمدخل الصرفيُّ والاشتقاقيُّ حلقة مركزيَّة لذلك راح البيضاويُّ يبحث في أصول الكلمات وتتبُّع اعتبارات الواضع لها من جهة الأقيسة والمناسبات وكذلك ما فيها من عدول على مستوى البنية. فبالصرف يعرف المؤوِّل أبنية الكلمات وأوزانها وصيغها، فيدرك من خلال ذلك معانيها.

لقد جعل البيضاويُّ المدخل النحويَّ آليَّة أساسيَّة في عمليَّة بناء معاني الخطاب القرآنيِّ، لما لها من أدوار في الإبانة عن المعنى من خلال إعراب الآية وإيراد الاختلافات النحويَّة فيها. والنحو بلحاظه آليَّة تأويليَّة لا يعمل لوحده مستقِّلًا عن باقي المداخل، بل يتكامل ويتطالب معها كما رأينا في البحث من خلال انفتاحه على بعض البنيات البلاغيَّة (المجاز، الاستعارة، التقديم والتأخير...) التي ساندت النحو في إقامة المعنى وبيانه.

كما بدا لنا أنَّ حضور المدخل البلاغيِّ في التفسير بارز، ودوره في بناء الخطاب التفسيريِّ واضح، وقد عمل البيضاوي من خلال المدخل البلاغيِّ على بناء المعنى انطلاقًا من تحديد الوجه البلاغيِّ ثُمَّ استنباط المعنى المتواري خلف حجاب المجاز أو الأساليب البلاغيَّة (التقديم والتأخير، الحذف والذكر،...)، فالبنيات البلاغيَّة ساعدت من موقعها على جعل المعنى منكشفًا.

إنَّ البيضاويَّ من خلال تفسيره يعضِّد تأويله بما يسمِّيه مُحَمَّد بازي بالموازيات الخارجيَّة من: أسباب النزول، والناسخ والمنسوخ، والمكِّيِّ والمدنيِّ، والشواهد الحديثيَّة وأقوال الصحابة، والشواهد الشعريَّة وغير ذلك..

كما نخلص إلى أنَّ مبدأ التساند يتحكَّم في صناعة خطاب البيضاويِّ، وعليه تبيَّن لنا كيف تتساند المستويات اللُّغويَّة فيما بينها لإنتاج المعنى، فقد رأينا مِمَّا تقدَّم كيف تحتاج هذه المداخل إلى بعضها من أجل الوصول إلى معنى معيَّن؛ وهذا يجعل الاعتماد على مدخل أو مدخلين من مداخل البنية النَّصِّيَّة قاصرًا عن تحقيق الهدف المنشود من أية قراءة تأويليَّة تروم السلامة من الزلل.

المصادر

القرآن الكريم

أبـو السـعود. إرشـاد العقـل السـليم إلى مزايـا القـرآن الكريـم. ج٩. بيروت-لبنـان: دار إحيـاء الـتراث العـربي,د.ت.

أحمـد عـلي, يوسـف. "البيضـاوي ومنهجـه في التفسـير." إشراف مُحَمَّـد شـوقي خـضر السـيد. جامعـة أم القـرى, ١٩٩٧.

ابـن جنـي. المنصف.تحقيـق أمـين مصطفـى, إبراهيـم عبـد الله. ط١. القاهـرة: دار إحيـاء الـتراث القديـم, ١٩٥٤.

ابـن منظـور. لسـان العـرب. بـيروت: دار صـادر, د.ت.

الأنصـاري, ابـن هشـام. مغنـي اللبيـب عـن كتـب الأعاريـب. تحقيـق مـازن المبـارك و حمـد عـلي حمـد الله. ط١. دمشـق: دار الفكـر, ١٩٦٤.

البيضـاوي, نـاصر الديـن. أنـوار التنزيـل وأسرار التأويـل. تحقيـق مُحَمَّـد صبحـي و محمـود أحمـد الأطـرش. ط١. بـيروت: دار الرشـيد, ٢٠٠٠.

الحلبـي, السـمين. الـدر المصـون في علـوم الكتـاب المكنون.تحقيـق أحمـد مُحَمَّـد الخـراط. دمشـق - سـوريا: دار القلـم, د.ت.

الحنفـي, مُحَمَّـد. حاشـية محيـي الديـن شـيخ زاده.تحقيـق مُحَمَّـد عبـد القـادر شـاهين. ط١. بيروت-لبنـان: دار الكتـب العلميـة, ١٩٩٩.

الزمخـشري. أسـاس البلاغة.تحقيـق مُحَمَّـد باسـل عيـون السـود. بيروت-لبنـان: دار الكتـب العلميـة, ١٩٩٨.

الزمخـشري, محمـود بـن عمـر. الكشـاف عـن حقائـق غوامـض التنزيـل وعيـون الأقاويـل في وجـوه التأويـل. اعتنـى بـه وخـرج أحاديثـه وعلـق عليـه خليـل مأمـون شـيحا. بـيروت-لبنـان: دار المعرفـة, ٢٠٠٩.

السـامرائي, فاضـل. عـلى طريـق التفسـير البيـاني. جامعـة الشـارقة, ٢٠٠٢.

السـيوطي. همـع الهوامـع في شرح جمـع الجوامـع. تحقيـق عبـد الحميـد هنـداوي. مـصر: المكتبـة التوفيقيـة, د.ت.

الشربـاصي, أحمـد. قصـة التفسـير. ط١. بـيروت: دار الجيـل, ١٩٩٠.

الفـراء. معـاني القـرآن. تحقيـق امُحَمَّـد علي النجر و أحمـد يوسـف نجـاتي. ط٣. عالم الكتـب,١٩٨٣.

القرطبـي. الجامـع لأحـكام القرآن.تحقيـق عبـد الله بـن عبـد المحسـن التركـي. ط١. مؤسسـة الرسـالة, ٢٠٠٦.

بازي, مُحَمَّد. التأويلية العربية: نحو نموذج تساندي في فهم النصوص والخطابات. ط١. منشورات الاختلاف, ٢٠١٠.

بازي, مُحَمَّد. صناعة الخطاب: الأنساق العميقة للتأويلية العربية. ط١. عمان_ الأردن: دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع, ٢٠١٥.

بازي, مُحَمَّد. نظرية التأويل التقابلي: مقدمات لمعرفة بديلة بالنصّ والخطاب. ط١. الرباط: دار الأمان, ٢٠١٣.

بودرع, عبد الرحمن. نحو قراءة نصية في بلاغة القرآن الحديث. ط١. الدوحة: كتاب الأمة, ٢٠١٣.

رجوان, مصطفى. "بلاغة التقابل والتأويل التقابلي: آفاق جديدة"، فصول:" مجلة النقد الأدبي, العدد١٠٤.(٢٠١٨).

رجوان, مصطفى. في بلاغة الخطاب: من بديع اللفظ إلى بديع التأويل تقديم مُحَمَّد بازي. ط١. الأردن: دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع, ٢٠٢٠.

References

The Glorious Qur'an

Abu al-Suʿud. (n.d.). Irshad al-ʿAql al-Salim ila Mazaya al-Qurʾan al-Karim (Guidance of the Sound Mind to the Virtues of the Glorious Qur'an), Vol. 9. Dar Iḥyả al-Turath al-ʿArabi.

Aḥmed Ali, Yusuf. (1997). Al-Bayḍawi wa Manhajuhu fi al-Tafsir (Al-Baydawi and His Methodology in Exegesis) [Master's thesis, Umm Al-Qura University]. Supervised by Muḥammad Shawqi Khiḍr al-Sayyid.

Al-Ansari, Ibn Hisham. (1964). Mughni al-Labib ʿan Kutub al-Aʿarib (The Enricher of the Intelligent from Books of Grammatical Analysis) (1st ed.). (M. al-Mubarak & Ḥ. ʿA. Ḥamd Allah, Eds.). Dar al-Fikr.

Al-Bayḍawi, Nasir al-Din. (2000). Anwar al-Tanzil wa Asrar al-Tảwil (Lights of Revelation and Secrets of Interpretation) (1st ed.). (M. Ṣubḥi & M. A. al-Atrash, Eds.). Dar al-Rashid.

Bazi, Muḥammad. (2010). al-Tảwiliyyah al-ʿArabiyyah: Naḥwa Namudhaj Tasandi fi Fahm al-Nuṣuṣ wa al-Khitabat (Arabic Hermeneutics: Towards an Interdependent Model for Understanding Texts and Discourses) (1st ed.). Manshurat al-Ikhtilaf.

Bazi, Muḥammad. (2013). Naẓariyyat al-Tảwil al-Taqabuli: Muqaddimat li-Maʿrifah Badilah bi al-Naṣṣ wa al-Khitab (The Theory of Counter-Interpretation: Introductions to an Alternative Knowledge of Text and Discourse) (1st ed.). Dar al-Aman.

Bazi, Muḥammad. (2015). Ṣinaʿat al-Khitab: al-Ansaq al-ʿAmiqah li al-Tảwiliyyah al-ʿArabiyyah (The Making of Discourse: The Deep Systems of Arabic Hermeneutics) (1st ed.). Dar Kunuz al-Maʿrifah lil-Nashr wa al-Tawziʿ.

Buḍirʿ, Abd al-Raḥman. (2013). Naḥwa Qirảah Naṣṣiyyah fi Balaghat al-Qurʾan al-Ḥadith (Towards a Textual Reading in the Modern Eloquence of the Qur'an) (1st ed.). Kitab al-Ummah.

Al-Farrả. (1983). Maʿani al-Qurʾan (Meanings of the Qur'an) (3rd ed.). (M. ʿA. al-Najr & A. Y. Najati, Eds.). ʿAlam al-Kutub.

Al-Ḥalabi, Al-Samin. (n.d.). al-Durr al-Maṣun fi ʿUlum al-Kitab al-Maknun (The Preserved Pearls in the Sciences of the Hidden Book). (A. M. al-Kharrat, Ed.). Dar al-Qalam.

Al-Ḥanafi, Muḥammad. (1999). Ḥashiyat Muḥyi al-Din Shaykh Zadah (Glosses of Muḥyi al-Din Shaykh Zadah) (1st ed.). (M. ʿA. Shahin, Ed.). Dar al-Kutub al-ʿIlmiyyah.

Ibn Jinni. (1954). al-Munṣif (The Fair) (1st ed.). (A. Muṣtafa & I. ʿAbd Allah, Eds.). Dar Iḥyả al-Turath al-Qadim.

Ibn Mandhur. (n.d.). Lisan al-ʿArab (Tongue of the Arabs). Dar Ṣadir.

Al-Qurtubi. (2006). al-Jamiʿ li-Aḥkam al-Qurʾan (Compendium of Qur'anic Rulings) (1st ed.). (ʿA. ibn ʿA. al-Muḥsin al-Turki, Ed.). Muʾassasat al-Risalah.

Rajwan, Muṣtafa. (2018). Balaghat al-Taqabul wa al-Tảwil al-Taqabuli: Afaq Jadidah [Rhetoric of Contrast and Counter-Interpretation: New Horizons]. Fuṣul: Majallat al-Naqd al-Adabi, (104).

Rajwan, Muṣṭafa. (2020). Fi Balaghat al-Khitab: Min Badiʿ al-Lafẓ ila Badiʿ al-Tảwil (On the Rhetoric of Discourse: From the Eloquence of Wording to the Eloquence of Interpretation) (1st ed.). (M. Bazi, Pref.). Dar Kunuz al-Maʿrifah lil-Nashr wa al-Tawziʿ.

Al-Samarrải, Faḍil. (2002). ʿAla Tariq al-Tafsir al-Bayani (On the Path of Rhetorical Exegesis). University of Sharjah.

Al-Suyuti. (n.d.). Hamʿ al-Hawamiʿ fi Sharḥ Jamʿ al-Jawamiʿ (Downpour of Showers in the Commentary on the Collection of Compilations). (ʿA. al-Ḥamid Hindawi, Ed.). al-Maktabah al-Tawfiqiyyah.

al-Sharbasi, Aḥmad. (1990). Qiṣṣat al-Tafsir (Story of Exegesis) (1st ed.). Dar al-Jil.

"فِي التَّسْلِيمِ لِمَدِيْنَةِ الْعِلْمِ وَأبْوَابِهَا"

ملف المجلة الثابت العام الذي يُعنى بالخطاب النبوي
وامتداداته العلوية صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين

عنوان الملف في هذا العدد:

طُرُوْحَاتٌ فِي تَدَاوُلِيَّةِ الخِطَابِ وَتَعَدُّدِ دَلَالَاتِهِ